أن ذلك خير ؟ فعلينا ألا نأخذ كل قضية بظاهرها ، إن كانت خيراً أو شراً ، ولكن علينا أن نأخذ كل قضية من قضايا الحياة فى ضوء قول الحق :

﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الحديد)

والحق هو القائل : « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » . ولله المثل الأعلى ، سبق لنا أن ضربنا المثل من قبل بالرجل الحنون الذى يحب ولده الوحيد ويرجو بقاءه فى الدنيا ، لذلك عندما يمرض الابن فالأب يعطيه الدواء المر ، وساعة يعطيه الجرعة فالابن يكره الدواء ولكنه خير له . بعد ذلك يتحدث الحق سبحانه وتعالى عن سؤال آخر يقول فيه :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ
ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ
عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ
حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ
مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ
أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ
هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾

والسؤال هنا ليس عن الشهر الحرام ؛ لأنه كان معروفا عندهم من أيام الجاهلية ، ولكن السؤال عن القتال فى الشهر الحرام ، فما جدوى السؤال إذن ؟ إنه سؤال استفزازى ، والمسألة لها قصة . ونعرف أن للسنة اثنى عشر شهراً ، وقد جعل الله فيها أربعة أشهر حرم : شهر واحد فرد وهو رجب ، وثلاثة سرد ، وهى ذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم . ومعنى أشهر حرم أى أن القتال محرم فيها .

لقد علم الله كبرياء الخلق على الخلق ، لذلك جعل الله لخلقه ساترا يحمى كبرياءهم ، ومن هذه السنن التى سنها الله هى حرمة القتال فى الأشهر الحرم ، والأماكن الحرم ، فيجوز أن الحرب تضر المحارب ، لكن كبرياءه أمام عدوه يمنعه من وقف القتال ، فيستمر فى الحرب مهما كان الثمن ، فيأتى الحق سبحانه وتعالى ويقول للمتحاربين : ارفعوا أيديكم فى هذه الشهور لأنى حرمت فيها القتال . وربما كان المحاربون أنفسهم يتمنون من أعماقهم أن يتدخل أحد ليوقف الحرب ، ولكن كبرياءهم يمنعهم من التراجع ، وعندما يتدخل حكم السماء سيجد كل من الطرفين حجة ليتراجع مع حفاظه على ماء الوجه . وكذلك جعل الله أماكن محرمة ، يحرم فيها القتال حتى يقول الناس إن الله هو الذى حرمها ، وتكون لهم ستاراً يحمى كبرياءهم .

إذن فالحق سبحانه وتعالى الذى خلق الإنسان أراد أن يصون الإنسان حتى يحقن الدماء ، فإذا ظل الناس ثلاثة أشهر بلا حرب ، ثم شهراً آخر ، فنعموا فى هذه الفترة بالسلام والراحة والهدوء ، فربما يألفون السلام ، ولا يفكرون فى الحرب مرة أخرى ، لكن لو استمرت الحرب بلا توقف لظل سُعار الحرب فى نفوسهم ، وهذه هى ميزة الأشهر الحرم .

والأشهر الحرم حُرُمٌ فى الزمان والمكان ؛ لأن الزمان والمكان هما ظرف الأحداث ، فكل حدث يحتاج زمانا ومكانا . وعندما يُحرم الزمان ويُحرم المكان فكل من طرف القتال يأخذ فرصة للهدوء .

إن الحق سبحانه وتعالى يعرض هنا قضية أراد بها خصوم الإسلام من كفار قريش

واليهود أن يثيروها ؛ فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسل بعض السرايا للاستطلاع ، والسرية هي عدد محدود من المقاتلين ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأرسل سرية على رأسها عبدالله بن جحش الأسدى ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأرسل معه ثمانية أفراد ، وجعله أميرا عليهم ، وأعطاه كتابا وأمره ألا يفتحه إلا بعد مسيرة يومين ، وذلك حتى لا يعلم أحد أين تذهب السرية ، وفى ذلك احتياط فى إخفاء الخبر .

فلما سارت السرية ليلتين فتح عبدالله الكتاب وقرأه فإذا به : اذهب إلى « بطن نخلة » وهو مكان بين مكة والطائف واستطلع عيرقريش ، ولا تُكره أحدا ممن معك على أن يسير مرغما ، بمعنى أن يكون لكل فرد فى السرية حرية الحركة ، فمن يفضل عدم السير فى السرية فله هذا الحق .

وبينما هم فى الطريق ضل بعير لسعد بن أبى وقاص وعقبة بن غَزْوان ، وذهبا يبحثان عن البعير ، وبقى ستة مقاتلين مع عبدالله ، وذهب الستة إلى « بطن نخلة » فوجدوا « عمرو بن الحضرمى » ومعه ثلاثة على عير لقريش ، فدخلوا معهم فى معركة ، وكان هذا اليوم فى ظنهم هو آخر جمادى الآخرة ، لكن تبين لهم فيما بعد أنه أول رجب أى أنه أحد أيام شهر حرام .

وقتل المسلمون ابن الحضرمى ، قتله واقد بن عبدالله من أصحاب عبدالله ابن جحش ، وأسروا اثنين ممن معه ، وفر واحد ، فلما حدث هذا ، وتبين لهم أنهم فعلوا ذلك فى أول رجب ، عند ذلك اعتبروا أن قتالهم وغنائمهم مخالفة لحرمة شهر رجب .

وثارت المسألة أخذا وردًا بين المسلمين قبل أن تتحدث فيها قريش حيث قالوا : إن محمداً يدعى أنه يحترم المقدسات ويحترم الأشهر الحرم ، ومع ذلك قاتل فى الأشهر الحرم ، وسفك دمنا ، وأخذ أموالنا ، وأسر الرجال . فامتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغنائم والأسرى حتى يفصل الله فى القضية فنزل حكم السماء فى القضية بهذا القول الحكيم :

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧)﴾

(سورة البقرة)

نحن مُسلّمون أن القتال فى الشهر الحرام أمر كبير ، ولكن انظروا يا كفار قريش إلى ما صنعتم مع عبادنا وقارنوا بين كبْر هذا وكبْر ذاك . أنتم تقولون : إن القتال فى الشهر الحرام مسألة كبيرة ، ولكن صدكم عن سبيل الله وكفركم به ، ومنعكم المسلمين من المسجد الحرام ، وإخراج أهل مكة منها أكبر عند الله من القتال فى الشهر الحرام ، فلا تفعلوا ما هو أكبر من القتال فى الشهر الحرام ، ثم تأخذكم الغيرة على الحرمات .

فكأن الحق أراد أن يضع قضية واضحة هى : لا تأخذوا من جزئيات التدين أشياء وتتحصنوا فيها خلف كلمة حق وأنتم تريدون الباطل فالواقع يعرض الأشياء ، ونحن نقول : نعم إن القتال فى الشهر الحرام كبير . ولكن يا كفار قريش اعلموا أن فتنة المؤمنين فى دينهم وصدهم عن طريق الله ، وكفركم به - سبحانه - وإهداركم حرمة البيت الحرام بما تصنعون فيه من عبادة غير الله ، وإخراجكم أهله منه ، إن هذه الأمور الآثمة هى عند الله أكبر جرماً وأشد إثماً من القتال فى الأشهر الحرم لاسترداد المسلمين بعض حقهم لديكم .

ولهذا يرد الحق سهام المشركين فى نحورهم « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » أى إياكم أن تعتقدوا أنهم سيحترمون الشهر الحرام ولا المكان الحرام ، بل « ولا يزالون يقاتلونكم » أى وسيصرون ، ويداومون على قتالكم

«حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا».

وتأمل قوله: «إن استطاعوا» إن معناها تحدٍ لهم بأنهم لن يستطيعوا أبدا فـ «إنْ» تأتى دائما فى الأمر المشكوك فيه. ويتبع الحق «ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» سيظلون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا. ثم يختم الحق الآية بقضية يقول فيها: «ومن يرتدد منكم عن دينه» هذه الآية يقابلها آية أخرى يقول الحق فيها:

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى الْآخِرَةِ مِنَ الْخَٰسِرِينَ﴾

(من الآية ٥ سورة المائدة)

وإذا قارنّا بين الآيتين نجد أن الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها قد ورد فيها قوله: «فيمت وهو كافر» وفى سورة المائدة لم يرد هذا وإنما ورد قوله: «ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله» وقد اختلف العلماء فى المسألة اختلافات جميلة. ولكنهم اتفقوا أوّلا على أن أى إنسان يرتد عن الإسلام ثم يموت مرتداً فقد حبطت أعماله. ولكن اختلافهم تركز فيما لو رجع وآمن مرة ثانية، أى لم يمت وهو كافر، بل رجع فآمن بعد ردته، فهل حبط عمله أم لم يحبط؟.

وللإمام الشافعى رأى يقول: إن الذى يرتد عن الدين تحبط أعماله إن مات على الكفر، أما إن عاد وأسلم مرة أخرى فإن أعماله التى كانت قبل الارتداد تكون محسوبة له. والإمام أبو حنيفة له رأى مختلف فهو يقول: لا، إن آية سورة المائدة ليس فيها «فيمت وهو كافر» وعليه فإننا نُحملها على آية سورة البقرة التى ذكر فيها ذلك من باب حمل المطلق على المقيد، وعلى ذلك فالذى يكفر بعد إيمانه عمله محبط سواء رجع إلى الإيمان بعد ذلك أو لم يرجع، فلا يحتسب له عمل.

أين موضوع الخلاف إذن؟. هب أن إنساناً آمن وأدى فريضة الحج ثم لا قدر الله كفر وارتد، ثم رجع فآمن أتظل له الحجة التى قام بها قبل الكفر أم تحبط ويطلب منه حج جديد؟ هذه هى نقطة الخلاف. فالشافعى يرى أنه لا يُحبط عمله مادام قد

رَجع إلى الإيمان لأن الله قال : « فيمت وهو كافر » فمعنى ذلك أنه إن لم يمت على الكفر فإن عمله لا يحبط . ولكن لا يأخذ ثوابا على ذلك الحج الذى سبق له أن أداه ، لقد التفت الإمام الشافعى رضى الله عنه إلى شئ قد يغفل عنه كثير من الناس ، وهو أن الحج ركن من أركان الإسلام ، فالذى لا يحج وهو قادر على الحج فالله يعاقبه على تقصيره ، والذى حج لا يعاقب ويأخذ ثواب فعله .

فكأن الأعمال التى طلبها الحق سبحانه وتعالى إن لم تفعلها وكانت فى استطاعتك عوقبت ، وإن فعلتها يمر عملك بمرحلتين ، المرحلة الأولى هى ألا تُعاقب ، والمرحلة الثانية هى أن تُثاب على الفعل . فالشافعى قال : إن الشخص إذا فعل فعلاً يُثاب عليه الإنسان ، ثم كفر ، ثم عاد إلى الإسلام فهو لا يُعاقب ، ولكنه لا يُثاب . أما الإمام أبو حنيفة فقد قال : إنه لا عبرة بعمله الذى سبق الردة مصداقا لقوله تعالى : « حبطت أعمالهم » أى أُبطِلَت وزالت ، وكأنها لم تكن .

إنّ القرآن استخدم هنا كلمة « حبط » ، وهى تُستخدم تعبيراً عن الأمر المحسوس ، فيقال : « حبطت الماشية » أى أصابها مرض اسمه الحُباط ، لأنها تأكل لونا من الطعام تنتفخ به ، وعندما تنتفخ فقد تموت . والنبى عليه الصلاة والسلام يقول : « إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم »[1] .

إنه صلى الله عليه وسلم يحذرنا من أن الخير قد يندس فيه شر ، مثلما يحدث فى الربيع الذى ينبت فيه من النبات الذى يعجب الماشية فتأكله فيأتيها مرض « الحُباط » ، فتنتفخ ثم تموت ، أو « يلم » أى توشك أن تموت ، وكذلك الأعمال التى فعلها الكفار تصبح ظاهرة مثل انتفاخ البطن ، وكل هذه العمليات الباطلة ستحبط كما تحبط الماشية التى أكلت هذا اللون من الخضر ، ثم انتفخت فيظن المشاهد لها أنها سمنة ؛ وبعد ذلك يفاجأ بأنه مرض . لقد أعطانا الله من هذا القول المعنى المحسوس لتشابه الصورتين ؛ فالماشية عندما تحبط تبدو وكأنها نمت وسمنت ، لكنه نمو غير طبيعى إنه ليس شحماً أو لحما ، لكنه ورم ، كذلك عمل الذين كفروا ؛ عمل حابط ، وإن بدا أنهم قد قاموا بأعمال ضخمة فى ظاهرها أنها طيبة وحسنة .

---

(١) رواه البخارى والترمذى وابن ماجه

ويقول بعض الناس : وهل يُعقل أن الكفار الذين صنعوا إنجازات قد استفادت منها البشرية ، هل من المعقول أن تصير أعمالهم إلى هذا المصير ؟ . لقد اكتشفوا علاجا لأمراض مستعصية وخففوا آلام الناس ، وصنعوا الآلات المريحة والنافعة . ونقول لأصحاب مثل هذا الرأى : مهلاً ، فهناك قضية يجب أن نتفق عليها وهى أن الذى يعمل عملاً ؛ فهو يطلب الأجر ممن عمل له ، فهل كان هؤلاء يعملون وفى بالهم الله أم فى بالهم الإنسانية والمجد والشهرة ؟ . لقد أعطتهم الإنسانية المجد والشهرة ، وماداموا قد نالوا هذا الأجر فى الدنيا فليس لهم أن ينتظروا أجراً فى الآخرة . لذلك يقول الحق :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾

(سورة النور)

إن الكافر يظن أن أعماله صالحة نافعة لكنها فى الآخرة كالسراب الذى يراه الإنسان فى الصحراء فيظنه ماء ، ويجد نفسه فى الآخرة أمام لحظة الحساب فيوفيه الله حسابه بالعقاب ، وليس لهم من جزاء إلا النار ، وينطبق عليهم ما ينطبق على كل الكافرين بالله ، وهو «وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» .

هذا وإن الحق سبحانه وتعالى يوضح حقيقة الأمر للمؤمنين به وبرسوله صلى الله عليه وسلم حتى يعطيهم مناعة إيمانية ضد آمال الكافرين فى الإضرار بالمؤمنين ، فيعلمنا أنهم لن يدخروا وسعا حتى يردوكم عن دينكم ؛ لأن منهج الله دائما لا يخيف إلا المبطلين ؛ فالإنسان السوى الذى يريد أن يعايش العالم فى سلام ويأخذ من الخير على قدر حركته فى الوجود لا ترهقه سيادة مبادىء الإسلام ، إنما ترهق مبادىء الإسلام هؤلاء الذين يريدون أن يسرقوا عرق وكدّ غيرهم وهم يبذلون كل الجهد ويستخدمون كافة الأساليب التى تصرف المسلمين عن دينهم ، ولكن هل يمكّنهم الله من ذلك ؟ لا ؛ فلا يزال هناك أمل فى الخير إن تمسكت أمة الإسلام بالمنهج الحق .

إنه سبحانه يعطى المناعة للمؤمنين ، والمناعة ـ كما نعرف ـ هى أن تنقل للسليم

ميكروب المرض بعد إضعافه ، وبذلك تأخذ أجهزة جسمه فرصة لأن تنتصر على هذا الميكروب ؛ لذلك قال الحق : « ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم » . إن الخلاف الجوهرى بين المؤمن والكافر ، هو أن المؤمن إنما يعمل العمل الصالح وفى نيته أن المكافىء هو الله ، وهو يتجه بنية خالصة فى كل عمل . ويأخذ بأسباب الله فى العلم لينتفع به غيره من الناس ؛ فتكون الفائدة عميمة وعظيمة ، وعلى المؤمن أن يكون سباقاً إلى الاكتشاف والاختراع ونهضة العالم المسلم ، وأن يكون المؤمن العالم منارة تشع بضوء الإيمان أمام الناس ، لا أن يترك غيره من الكافرين يصلون إلى المكتشفات العلمية وهو متواكل كسلان .

إن على المؤمن أن يأخذ بأسباب الله فى الحياة ؛ لأن الإسلام هو دين ودنيا ، وهو دين العلم والتقدم ، ويضمن لمن يعمل بمنهجه سعادة الدنيا وسعادة الآخرة . وإذا كان المؤمن يستمتع بإنتاج يصنعه الكافر فليعلم أن الكافر إنما أخذ أجره مُسخراً ممن عمل له ، أما المؤمن فحين يتفوق فى الصناعة والزراعة والعلم والاكتشاف فهو يأخذ الأجر فى الدنيا وفى الآخرة ؛ لأن الذى يعطى هنا هو الله .

أما عمل الكافر فهو عمل من مسخر كالمطايا وكالجماد والنبات والحيوان المسخرة لخدمة الإنسان . وإذا كان الله قد ميز المؤمن على الكافر بالأجر فى الدنيا وحسن الثواب فى الآخرة ، ألا يليق بالمؤمن أن يسبق الكافر فى تنمية المجتمع الإسلامى ، وأن يكون بعمله منارة هداية لمن حوله ؟! ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾

إن الآية قد عددت ثلاثة أصناف : الصنف الأول هم الذين آمنوا ، والصنف

الثانى هم الذين هاجروا ، والصنف الثالث هم الذين جاهدوا . إن الذين آمنوا إيماناً خالصاً لوجه الله ، وهاجروا لنصرة الدين ، وجاهدوا من أجل أن تعلو كلمة الإسلام هؤلاء قد فعلوا كل ذلك وهم يرجون رحمة الله . ولقائل أن يقول : أليست الرحمة مسألة متيقنة عندهم ؟

ونقول : ليس للعبد عند الله أمر متيقن ؛ لأنك قد لا تفطن إلى بعض ذنوبك التى لم تُحسن التوبة منها ، ولا التوبة عنها . وعليك أن تضع ذلك فى بالك دائماً ، وأن تتيقن من استحضار نية الإخلاص لله فى كل عمل تقوم به ؛ فقد تحدثك نفسك بشىء قد يفسد عليك عملك ، وكذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سيد الخلق وسيد الموصولين بربهم يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع وعمل لا يُرفع ودعاء لا يُسمع »[1] .

إن الرسول الكريم وهو سيد المحتسبين فى كل أعماله يعلمنا أن النفس قد تخالط صاحبها بشىء يفسد الطاعة . وعلى المسلم أن يظل فى محل الرجاء . والمؤمن الذى يثق فى ربه لا يقول : إن على الله واجباً أن يعمل لى كذا ؛ لأن أصل عبادتك لله سبق أن دُفع ثمنها ، وما تناله من بعد ذلك هو فضل من الله عليك ، مدفوع ثمنها لك إيجاداً من عدم وإمداداً من عُدْم ، ومدفوع ثمنها بأن متعك الله بكل هذه الأشياء ، فلو قارنت بين ما طلبه الله منك ـ على فرض أنك لا تستفيد منه ـ فقد أفدت ممّا قدم لك أوّلا ، وكل خير يأتيك من بعد ذلك هو من فضل الله عليك ، والفضل يُرجى ولا يُتيقن .

وعظمة الحق سبحانه وتعالى فى أنك تدعوه خوفاً وطمعاً . ويقول هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ إن من عظمتك أمام والدك أنك تجد لك أباً تخاف منه ، وترغب أن يحقق لك بعضاً من أحلامك ، ولو اختلت واحدة من الاثنتين لاختلت الأبوة والبنوة .

كذلك عظمة الرب يُرغب ويُرهب : إن رغبت فيه ولم ترهبه فأنت ناقص

---

(١) رواه أحمد والحاكم وابن حبان عن أنس .

الإيمان ، وإن رهبت ولم ترغب فإيمانك ناقص أيضاً ، لذلك لابد من تلازم الاثنتين : الرهبة والرغبة . ولو تبصّر الإنسان ما فرضه الله عليه من تكاليف إيمانية لوجدَ أنه يفيد من هذه التكاليف أضعافاً مضاعفة . فكل ما يجازى به الله عباده إنّما هو الفضل ، وهو الزيادة . وكل رزق للإنسان إنما هو محض الفضل . ومحض الفضل يُرجى ولا يُتيقن .

وها هو ذا الحق يقول :

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۝٥٦ ﴾

(سورة الأعراف)

إن الدنيا كلها مسخرة تحت قهر الرحمن ومشيئته وتسخيره ، وله تمام التصرف فى كل الكائنات وهو الخالق البديع ، لذلك فليدع الإنسان الله بخشوع وخضوع فى السر والعلانية ، والحق لا يحب من يعتدى بالقول أو الرياء أو الإيذاء .

إن الإيمان يجب أن يكون خالصا لله ، فلا يفسد الإنسان الأرض بالشرك أو المعصية ؛ لأن الحق قد وضع المنهج الحق لصلاح الدنيا وهو القرآن ، ورسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورحمة الله قريبة من المطيعين للحق جل وعلا .

إن عظمة الرب فى أنه يُرغب ويُرهب ؛ إن رغبت فيه ولم ترهبه فعملك غير مقبول ، وإن رهبته ولم ترغب فعملك غير مقبول . إن الرغب والرهب مطلوبان معاً ، لذلك فالمؤمن المجاهد فى سبيل الله يرجو رحمة الله .

والحق يقول : « أولئك يرجون رحمة الله » ، ما هى الرحمة ؟ الرحمة ألا تبتلى بالألم من أول الأمر ، والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

(من الآية ٨٢ سورة الإسراء)

الشفاء هو أن تكون مصابا بداء ويبرئك الله منه ، لكن الرحمة ، هى ألا يأتى الداء أصلا « والله غفور رحيم » .

والله سبحانه وتعالى يعلم عن عباده أن أحداً منهم قد لا يبرأ من أن يكون له ذنب . فلو حاسبنا بالمعايير المضبوطة تماما فلسوف يتعب الإنسان منا ، ولذلك أحب أن أقول ـ دائما ـ مع إخوانى هذا الدعاء : « اللهم بالفضل لا بالعدل وبالإحسان لا بالميزان وبالجبر لا بالحساب » . أى عاملنا بالفضل لا بالعدل ، وبإحسانك لا بالميزان ، لأن الميزان يتعبنا .

ولقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن دخول الجنة لا يكون بالأعمال وحدها ، ولكن بفضل الله ورحمته ومغفرته . إن الرسول الكريم يقول :

« لن يدخل أحدكم الجنة بعمله . فقالوا : ولا أنت يا رسول الله ، قال : ولا أنا حتى يتغمدنى الله برحمته »[١] .

إذن فالمؤمن يرجو الله ولا يشترط على الله ، إن المؤمن يتجه بعمله خالصا لله يرجو التقبل والمغفرة والرحمة ، وكل ذلك من فضل الله . ويأتى الحق لسؤال آخر :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾

---

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم والبيهقى .

والخمر ـ كما نعرف ـ مأخوذة من الستر ، ويقال : « دخل فلان فى خمرة » أى فى أيكة من الأشجار ملتفة فاختبأ فيها . و« الخمار » هو القناع الذى ترتديه المسلمة لستر رأسها ، وهو مأخوذ أيضا من نفس المادة . و« خامره الأمر » أى خالطه . وكل هذه المعاني مأخوذة من عملية الستر . و« الميسر » مأخوذ من اليسر ؛ لأنه يظهر للناس بمكاسب يسيرة بلا تعب .

الخمر والميسر من الأمور التى كانت معروفة فى الجاهلية . والإسلام حين جاء ليواجه نُظُما جاهلية واجه العقيدة بلا هوادة ، ولم يجابهها ويواجهها على مراحل بل أزالها من أول الأمر ، ورفع راية « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، ثم جاء الإسلام فى الأمور التى تُعتبر من العادات فبدأ يهونها ؛ لأن الناس كانت تألفها ، لذلك أخذها بشىء من الرفق والهوادة . وكان هذا من حكمة الشرع ، فلم يجعل الأحكام فى أول الأمر عملية قسرية فقد يترتب عليها الخلل فى المجتمع وفى الوجود كله ، وإنما أخذ الأمور بالهوادة .

وإذا كانت الخمرة مأخوذة من الستر ، فماذا تستر ؟ إنها تستر العقل بدليل أن من يتعاطاها يغيب عن وعيه . ولا يريد الله سبحانه وتعالى للإنسان الذى كرمه الله بالعقل أن يأتى للشىء الذى كرمه به ويُسَيِّر به أمور الخلافة فى الأرض ويستره ويغيِّبه ، لأن من يفعل ذلك فكأنه رد على الله النعمة التى أكرمه بها ، وهذا هو الحمق .

ثم إن كل الذين يتعاطون الخمر يبررون فعلهم بأنهم يريدون أن ينسوا هموم الدنيا ، ونسأل هؤلاء : وهل نسيان الهموم يمنع مصادرها ؟ لا ، ولذلك فالإسلام يطلب منك أن تعيش همومك لتواجهها بجماع عقلك ، فإذا كانت هناك هموم ومشكلات فالإسلام لا يريد منك أن تنساها ، لا ، بل لابد أن توظف عقلك فى مواجهتها ، ومادام المطلوب منك أن تواجه المشكلات بعقلك فلا تأتى لمركز إدارة الأمور الحياتية وهو العقل،والذى يعينك على مواجهة المشكلات وتقهره بتغييبه عن العمل .

وهل النسيان يمنع المصائب ؟ إن الذى يمنع المصائب هو أن تحاول بجماع فكرك أن

تجد السبيل للخروج منها ، فإذا كان الأمر ليس فى استطاعتك فمن الحمق أن تفكر فيه ؛ لأن الله يريد منك أن تريح عقلك فى مثل هذه الأمور ، وإن كان الأمر له حل وفى استطاعتك حله ، فأنت تحتاج للعقل بكامل قوته .

والحق سبحانه وتعالى يرشدنا فى هذه القضية بحكمة الحكيم ، ويعطينا عطاء لنحكم نحن فى الأمر قبل أن يطلب منا . إنه ـ سبحانه ـ يمتن علينا ويقول :

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾

(من الآية ٦٧ سورة النحل)

فعندما ذكر الله « سَكَراً » مر عليها بلا تعليق . وعندما قال : « رزقاً » وصفه بأنه « حسناً » . فكان يجب أن نتنبه إلى أن الله يمهد لموقف الإسلام من الخمر ؛ فهو لم يصف « السكر » بأى وصف ، وجعل للرزق وصفا هو الحسن ؛ فالناس عندما يستخرجون من هذه الثمرات سكراً ، فهم قد أخرجوها عن الرزق الحسن ، لأن هناك فرقاً بين أن تأخذ من العنب غذاءً وبين أن تخمره فتفسده وتجعله ساتراً للعقل .

وبعد ذلك فهناك فرق بين تشريع ونصح . فعندما تنصح شخصا فأنت تقول له : سأدلك على طريق الخير وأنت حر فى أن تسير فيه أو لا تسير . وعندما تشرع وتضع الحكم ، فأنت تأمر هذا الشخص أو ذاك بأن يفعل الأمر ولا شىء سواه .

والحق سبحانه وتعالى عندما قال : « يسألونك عن الخمر والميسر » ، ذكر لنا المفاسد وترك لنا الحكم عليها ، قال سبحانه مُبَلِّغاً رسوله : « قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس » ولو لم يقل « ومنافع للناس » لاستغرب الناس وقالوا : نحن نأخذ من الخمر منافع ، ونكتسب منها ، وننسى بها همومنا ، كانت هذه هى المنافع بالنسبة لهم ، لكن الحق يوضح أن إثمهما أكبر من نفعهما ، أى أن العائد من وراء تعاطيهما أقل من الضرر الحادث منهما ، وهذا تقييم عادل ، فلم تكن المسألة قد دخلت فى نطاق التحريم ، لأنها مازالت فى منطقة النصح والإرشاد .

وقوله تعالى : « وإثمهما أكبر من نفعهما » يجعل فيهما نوعا من الذنب ، لقد كان

التدرج فى الحكم أمراً مطلوباً لأنه سبحانه يعالج أمراً بإلف العادة ، فيمهد سبحانه ليخرجه عن العادة . والعادة شيء يقود إلى الاعتياد ؛ بحيث إذا مر وقت ولم يأت ما تعودت عليه نفسيتك ودمك يحدث لك اضطراب . وما دامت المسألة تقود إلى الاعتياد ، فالأفضل أن تسد الباب من أوله وتمنع الاعتياد .

لقد كانت بداية الحكم فى أمر الخمر أن أحداً من المسلمين شرب الخمر قبل أن تُحرم نهائياً ، وجاء ليصلى ، فقال : « قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون » وبعدها نزل تأديب الحق بقوله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ .. (٤٣) ﴾ (سورة النساء)

وفى ذلك تدريب لمَنْ اعتاد على الخمر ألا يقربها ؛ فالإنسان الذى يصلى صدر عليه الحكم ألا يقرب الصلاة وهو سكران ، فمتى يمتنع إذن ؟ إنه يصحو من نومه فلا يقرب الخمر حتى يصلى الصبح ، ويقترب الظهر فيستعد للصلاة ، ثم العصر بعد ذلك ، ويليه المغرب فالعشاء ، أى لن يصبح عنده وقت ليشرب فى الأوقات التى ينتظر فيها الصلاة ، إذن فلا تصبح عنده فرصة إلا فى آخر الليل ، فإذا ما جاء الليل يشرب له كأساً ثم يغط فى نومه . ويكون الوقت الذى امتنع فيه عن الخمر أطول من الوقت الذى يتعاطى فيه الخمر .

ولما بدأ تعودهم على الخمر يتزعزع ، حدثت بعض الخلافات والمشكلات التى دفعتهم لأن يطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوضح لهم حكماً فاصلاً فى الخمر فنزل قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ

الصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾

(سورة المائدة)

فقالوا : انتهينا يارب .

إذن فالحق سبحانه وتعالى أراد بتحريم الخمر أن يحفظ على الإنسان عقله ؛ لأن العقل هو مناط التكليف للإنسان ، وهو مناط الاختيار بين البدائل ، فأراد الحق أن يصون للإنسان تلك النعمة .

إن هدف الدين في المقام الأول سلامة الضرورات الخمس التي لا يستغنى عنها الإنسان : سلامة النفس ، وسلامة العرض ، وسلامة المال ، وسلامة العقل ، وسلامة الدين . وكل التشريعات تدور حول سلامة هذه الضرورات الخمس ، ولو نظرت إلى هذه الضرورات تجد أن الحفاظ عليها يبدأ من سلامة العقل ، فسلامة العقل تجعله يفكر في دينه . وسلامة العقل تجعله يفكر في حركة الحياة . وسلامة العقل تجعله يحتاط لصيانة العرض .

إذن فالعقل هو أساس العملية التكليفية التي تدور حولها هذه المسألة ، والحق سبحانه وتعالى يريد ألا يخمر الإنسان عقله بأي شيء مُسكر . حتى لا يحدث عدوان على هذه الضرورات الخمس .

وقد جمع الله في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها بين الخمر والميسر ، وهو جل وعلا يريد أن يحمي غفلة الناس . فلعب الميسر يتمثل في صورته البسيطة في اثنين يجلسان أمام بعضهما البعض ، وكل واحد منهما حريص على أن يأخذ ما في جيب الآخر ، فأي أخوة تبقى بين هؤلاء ؟ إن كلاً منهما حريص على أن يعيد الآخر إلى منزله خاوي الجيوب فأي أخوة تكون بين الاثنين ؟

ومن العجيب أنك ترى الذين يلعبون الميسر في صورة الأصحاب ، ويحرص كل منهما على لقاء الآخر ، فأي خيبة في هذه الصداقة ؟!

ومن العجيب أن يقر كل من الطرفين صاحبه على فعله ، يأخذ ماله ويبقى على صداقته ، والعجب الأكبر هو التدليس والسرقة بين الذين يتعودون على لعب الميسر . ولو لاحظت حياة هؤلاء الذين يلعبون الميسر تجدهم ينفقون ويبذرون بلا احتياط ولا ينتفعون أبداً بما يصل أيديهم من مال مهما كان كثيراً ، لماذا ؟

لأن المال حين يُكتسب بيسر ، يُصرف منه بلا احتياط ، هذا هو حال من يكسب ، أما بالنسبة للخاسر فتجده يعيش فى الحسرة والألم على ما فقد ، وتجده فى فقر دائم ، وربما اضطر إلى التضحية بعرضه وشرفه ، إن لم يبع ملابسه ، وأعز ما يملك ، ويحدث كل ذلك بأمانٍ زائفة ، وآمال كاذبة يزينها الشيطان للطرفين ؛ الذى كسب والذى خسر ، فالذى كسب يتمنى زيادة ما معه من مال أكثر وأكثر ، والذى خسر يأمل أن يسترد ما خسره ويكسب .

وعندما يتعود الإنسان أن يكسب بدون حركة فكل شيء يهون عليه ، ويعتاد أن يعيش على الكسب السهل الرخيص ، وحين لا يجد من يستغفله ليلعب معه ربما سرق أو اختلس . وهذا هو حال الذين يلعبون الميسر ؛ إنهم أصحاب الرذائل فى المجتمع ، فهم الذين يرتشون ويسرقون ويعربدون ، ولا أخلاق عندهم وليس لهم صاحب ولا صديق ، وبيوتهم منهارة ، وأسرهم مفككة ، وعليهم اللعنة حتى فى هيئتهم وهندامهم .

ولذلك قال الحق : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » ومادام الإثم أكبر من النفع ، فقد رجح جانب الإثم . هذا فى العملية الذاتية ، أما فى العملية الزمنية فقد قال سبحانه :

﴿ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة النساء)

وبعد ذلك أنهى ـ سبحانه ـ المسألة تماما بقوله الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ

ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾

(سورة المائدة)

ثم تمضى الآية إلى سؤال آخر هو « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو » إنه السؤال نفسه من عمرو بن الجموح وكان الجواب عليه من قبلُ هو « قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل » وهنا جواب بشكل وصورة أخرى « قل العفو » والعفو معناه الزيادة وفى ذلك يقول الحق ـ سبحانه وتعالى ـ :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إن الله ـ جلت قدرته ـ يحذر وينذر لعل الناس تتذكر وتعتبر ، إنه ـ سبحانه ـ لم يرسل نبيًا إلى قوم فقابلوه بالتكذيب والنكران إلا أخذهم وابتلاهم بالفقر والبؤس والمرض والضر لعلهم يتوبون إلى ربهم ويتذللون له ـ سبحانه ـ ليرفع عنهم ما ابتلاهم به ، ثم لما لم يرجعوا ويقلعوا عما هم فيه من الكفر والعناد اختبرهم وامتحنهم بالنعم ؛ بالخصب والثراء والعافية والرخاء حتى كثروا وزادت أموالهم وخيراتهم ، وقالوا ـ وهم فى ظل تلك النعم ـ : إن ما يصيبنا من سراء وضراء وخير وشر إنما هو سنة الكون ، وعادة الدهر ، فأسلافنا وآباؤنا كان يعتريهم مثل ما يصيبنا ، ولما أصروا على كفرهم باغتهم الله بالعذاب ، وأنزل بهم العقاب المفاجىء . قلبهم الله بين الشدة والرخاء ، وعالجهم بالضر واليسر ، حتى لا تكون لهم حجة على الله ، ولما ظهرت خسة طبعهم وأقاموا على باطلهم أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر . ولنتأمل قوله تعالى فى ذلك :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ

مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا
فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾

(سورة الأنعام)

أى لم نعجل بعقابهم بل تركناهم فتمادوا فى المعصية حتى إذا فرحوا بما أوتوا من النعمة والثروة وكثرة العدد ، « أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » أى يائسون من رحمة الله أو نادمون متحسرون ، ولا ينفعهم الندم حينئذ . فقد فاتت الفرصة وضيّعوها على أنفسهم .

إن الحق ينزل هذا الأمر كعقاب وبه تكون النقلة صعبة ، إنهم يتمادون فيعاقبهم الحق عقابا صاعقا ، كالذى يرفع كائنا فى الفضاء ثم يتركه ليهوى على الأرض ، والعفو هنا يمكن أن يكون بمعنى أنهم ازدادوا فى الطغيان . وهناك معنى آخر للعفو ، فقد يأتى بمعنى الترك :

﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ﴾

(من الآية ١٧٨ سورة البقرة)

أى فمن ترك له أخوه شيئا فليأخذه . إذن فالعفو تارة يكون بمعنى الزيادة ، وتارة أخرى يكون بمعنى الترك ، والحق هنا يقول : « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو » أى أن الإنفاق إنما يكون من الزائد عن الحاجة ، فيكون معنى العفو هنا هو الزائد أو المتروك ، وهكذا نرى أن العفو واحد فى كلا الأمرين ، فلا تظن أن المعانى تتضارب ؛ لأن بها يتحقق المعنى المقصود فى النهاية . فالعفو هو الزياده ، والعفو أيضا يؤخذ بمعنى الصفح .

إذن فالإنفاق من الزائد عن الحاجة يحقق الصفح ويحقق الرفاهية فى المجتمع . فالذى يزرع أرضا وينتج ما يكفيه هو وعياله ويزيد ، فهل يترك ما يزيد عن حاجته ليفسد أم ينفق منه على قريبه أو جاره المحتاج ؟ أيها أقرب إلى العقل والمنطق ؟ وكان ذلك قبل أن يشرع الحق الزكاة بنظامها المعروف . وما سر تبديلها من عفو إلى زكاة ؟

لأن الحق أراد أن يقدر حركة المتحرك ، فجعل حركته تخفف عنه ولا تثقل عليه . لأن حركة المتحرك تنفع المتحرك ، أراد المتحرك أو لم يرد ؛ ولذلك نجد « زكاة الركاز » وهى الزكاة المفروضة على ما يوجد فى باطن الأرض من ثروات كالمعادن النفيسة والبترول وغيرها ، لقد جعل الحق نصاب تلك الزكاة عشرين فى المائة ، أى الخمس بينما الذى يحرث الأرض ويبذر فيها الحب ويتركها حتى ينزل المطر فتنمو ، فنصاب الزكاة هو العشر على ما أنتجته زراعته .

وأما الذى يزرع على ماء الرى فعليه نصف العشر . والذى يتاجر كل يوم ويتعب فيذهب للمنتج يشترى منه ، ثم يوفر السلعة على البائع فيشتريها ، هذا نقول له : عليك اثنان ونصف فى المائة (٢,٥٪) فقط .

إذن فالزكاة متناسبة مع الحركة والجهد ، كأن الحق يحمى الحركة الإنسانية من حمق التقنين البشرى . إن المتحرك القوى يدفعه الله ليزيد من حركته لينتفع المجتمع ، وأوكل الله للحاكم الذى يتبع منهج الإسلام أن يأخذ من الأثرياء ما يقيم به كرامة الفقراء . إنْ بَخل الأغنياء بفضل الله عليهم ، ولم ينفقوا على الفقراء من رزق الله ؛ فالمنهج الحق يحمى المال من فساد الطمع ، ومن فساد الكسل ، ويريد الحياة مستقيمة وآمنة للناس .

فالذى ينفق من ماله على أهله يحيا وهو آمن . وكذلك من ينفق على أهله وتوابعه فتزداد دائرة الأمان ، وهكذا لقد حمى الله بالزكاة طموح البشر من حمق التقنين من البشر ، فالمقنن من البشر يأتى للمتحرك أكثر ويزيد عليه الأعباء ، نقول له : إن هذا المتحرك إن لم يقصد أن ينفع المجتمع فالمجتمع سينتفع بجهده بالرغم عنه ؛ فالإنسان الذى يملك مالا يُلقى الله خاطرا فى باله ، فيقول : « ماذا لو بنيت عمارة من عشرة أدوار ، وفى كل دور أربع شقق » ويحسب كم تعطيه تلك العمارة من عائد كل شهر . إن هذا الرجل لم يكن فى باله إلا أن يربح ، فنتركه يفكر فى الربح ، وعندما نراقب الفائدة التى ستعود على المجتمع منه فسنجد الفائدة تعود على المجتمع من هذا العمل ، ولنا أن نحسب كم فردا سوف يعمل فى بناء تلك العمارة الجديدة ؟ ابتداء من البنائين ومرورا بالنجارين والحدادين والمبيضين والسباكين وغيرهم .

إن كل طبقات المجتمع الفقيرة تكون قد أفادت واستفادت من مال هذا الرجل قبل أن يدخل جيبه مليم واحد ؛ لقد ألقى الله في نفسه خاطراً ، فأخرج كل ما فى جيبه ، وألقاه فى جيوب الآخرين قبل أن توجد له عمارة . وهكذا يحمى الله حركة المتحرك لأن حركته ستفيد سواء قصد إلى ذلك أو لم يقصد .

أما إذا قلنا له : سنأخذ ما يزيد على حاجتك قسراً فلا بد أن يقول لنفسه : «سأجعل حركتى على قدر حاجتى ولا أزيد إلا قليلاً » . والحق عز وجل لا يريد أن يشيع هذا المنطق بين الناس ، ولكن يريد لهم أن يتحركوا فى الحياة بالجدية والحلال، وكلما تكثر حركتهم تقل الزكاة المفروضة عليهم ، لأن الحركة لا يستفيد منها صاحبها فقط ولكن يستفيد منها المجتمع ، فبعضه يسكن ، وآخر يزرع ، وثالث يعمل ، وخير للإنسان أن يأكل من عمل يديه من أن يأكل من صدقات الناس وزكاتهم .

عن المقدام بن معديكرب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده »(١) .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ﴾

إن الحق يبدأ هذه الآية بقوله : « فى الدنيا والآخرة » وكأنه يقول لنا : إياكم أن

---

(١) رواه أحمد والبخارى .